

الدرس الرابع والأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد» :

باب قول الله تعالى ﴿وَكُنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠] ؛ قال مجاهد : «هذا بعلمي وأنا محقوق به» . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «يريد من عندي» . وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] قال قتادة : «على علم مني بوجوه المكاسب» . وقال آخرون : «على علم من الله أني له أهل» ؛ وهذا معنى قول مجاهد «أوتيته على شرف» .

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَكُنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾)) ؛ هذه الترجمة التي صدرها بهذه الآية الكريمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان وجوب إضافة النعم إلى المنعم سبحانه وتعالى شكراً له واعترافاً بمنه سبحانه وتعالى وفضله ، وإقراراً بأنه جل وعلا هو المنعم ، وأن العبد ليس له على الله حق واجب وإنما الله سبحانه وتعالى يتفضل على من شاء من عباده بما شاء من نعمه وعطاياه ومننه سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] ؛ ولهذا واجب على العبد وهو من توحيده لله سبحانه وتعالى أن يكون شاكراً لله على أنعمه معترفاً بنعم الله ، وكلما استجدت نعمة استجد منه ذكرٌ للمنعم اعترافاً بفضله وشكر له سبحانه وتعالى على مننه وعطايا .

ولهذا فإن مما يتنافى مع توحيد العبد لله عز وجل وشكره لنعمه سبحانه وتعالى أن يضيف العبد النعمة إلى نفسه؛ إما مثلاً إلى حذقه أو خبرته أو جدارته ، أو أنه ورث المال كائناً عن كابر ، أو أنه حقيقٌ وجدير به ، أو أن له شأنًا ومكانة ولهذا أعطي هذا المال أو غير ذلك ؛ فالواجب على العبد أن يتجنب ذلك تمام التجنب وأن يحذره

أشد الحذر ، وهذا من كفران النعم ، من كفران النعم: أن يضيف العبد النعمة إلى نفسه ، وأي شيء تصنع جدارة الإنسان أو حذقه أو خبرته أو تجربته لولا فضل الله سبحانه وتعالى عليه ومثله جل وعلا .

وهذه الآية الكريمة التي صدر بها رحمه الله تعالى هذه الترجمة ﴿ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ ؛ هذا لي : أي أنا حقيق به وجدير بتحصيله وأهل له ، وسيأتي ما أورده الله رحمه الله تعالى من نقولاتٍ عن بعض السلف رحمهم الله تعالى في بيان معنى الآية الكريمة .

وهذه الآية فيها بيان لطبيعة الإنسان إلا من رحمه الله سبحانه وتعالى بالإيمان والطاعة لله جل وعلا ، وإلا هذه طبيعة للإنسان ، كل إنسان هذه طبيعته ، قال الله سبحانه وتعالى في الآية التي قبلها : ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِقِنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩] هذه طبيعة في الإنسان ، كل إنسان لا يسأل من دعاء الخير ؛ يريد صحة ويريد مال ويريد تجارة ويريد أولاد ويريد ويريد ، وكلما جاءه من الخير طلب ، ولو أعطاه الله سبحانه وتعالى وادياً من ذهب لتمنى وادياً آخر . ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ نفسه في أمور دنياه نعمة لا تشبع مهما أعطي ، هذه طبيعة في الإنسان ، وبالمقابل ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِقِنُوطٌ ﴾ ؛ إذا أصابه الشر مثلاً من مرض أو فقر أو غير ذلك من المصائب والشدائد والأواء يؤوس قنوط أي من رحمة الله سبحانه وتعالى ، فهو في السراء ليس شاكراً للمنع سبحانه وتعالى بل في طمع متزايد على غير شكر للمنع سبحانه وتعالى والمتفضل ، وفي الضراء غير صابر ، لكن من نجاه الله سبحانه وتعالى بالإيمان فأمره أو شأنه آخر كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) .

قال: ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِقِنُوطٌ ﴾ (٤٩) ﴿ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ ﴾ يعني من بعد فقر مثلاً كان به ، أو من بعد مرض أعطاه الله صحة بعد مرض ، أو أعطاه مالاً بعد فقر، أو أعطاه قوة بعد ضعف ، إن تفضل الله عليه بالرحمة والمنة والعطية بعد ضراء مسته أي بعد حال كان عليها من الضراء والفقر والمرض ونحو ذلك ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ جحداً منه لنعمة الله سبحانه وتعالى وعدم اعتراف بفضل الله .

﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ وهذا إنكار للبعث وجحود للقيام بين يدي الله سبحانه وتعالى .

﴿وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ هذا أيضًا يذكره على سبيل الفرض المستبعد ، ينكر البعث ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي ما أعتقد أن الساعة تقوم لكن على فرض ولو قدّر على سبيل الاحتمال المستبعد أنها قائمة ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ ؛ مثل ما أعطاني المال والصحة والتجارة في الدنيا أيضًا في الآخرة سيعطيني الحسنى ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ .

﴿فَلَنَنْبِئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ؛ هذا لاشك كفر بالله سبحانه وتعالى وجحد نعمته وإنكار للبعث والقيام بين يدي الله جل وعلا ، وكل ذلك ناشئ من البطر والكبر والعجب والاعتقار بالدنيا، ولا سيما إذا أعطي حظًا ونصيبًا من الدنيا من أموال وتجارات وما إلى ذلك ، قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيِّفٍ﴾ (٦) ﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ [الملق: ٦-٧] . فهذا بيان لحال الإنسان كل إنسان إلا من نجاه الله سبحانه وتعالى بالإيمان والطاعة لله جل وعلا فإن حاله أخرى وشأنه آخر .

ومثل هذه الآية في تقرير هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى في سورة الزمر: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠) ﴿فَاصْبِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥١) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) ؛ فهذا أيضًا فيه بيان لحال الإنسان عندما يعطى من النعمة والمال والتجارة وما إلى ذلك تكون حاله كما ذكر الله سبحانه وتعالى يقول ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ : أي بجدارة وخبرة ومعرفتي بدروب التجارة ومهارتي فيها وخبرتي الطويلة وما إلى ذلك ، ويحدد نعمة المنعم سبحانه وتعالى .

ومثل ذلك أيضًا قول الله عز وجل في سورة الفجر ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ قال الله: ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما تقولون ولا كما تزعمون وتظنون ، بل الله عز وجل يبتلي من شاء من عباده بالسراء ويبتلي من شاء بالضراء ، ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، ولهذا قال في الآية المتقدمة من سورة الزمر ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَامْتِحَانٌ وَابْتِلَاءٌ﴾ ، يمتحن الله سبحانه وتعالى ويختبر عباده ، منهم من يختبره بالسراء والمال والتجارة هل يكون شاكراً أو كافر؟ ، ومنهم من يبتليه بالفقر والمرض هل يكون صابراً أو جازع؟ ، فالدنيا كلها دار ابتلاء وامتحان .

فالشاهد أن الإنسان إذا وسَّع الله عليه في المال والتجارة والرزق والصحة والعافية يقول "هذا لي" ، وهذه طبيعة في الإنسان إلا من نجاه الله بالإيمان ، وإلا هذه طبيعة في الإنسان مباشرة يدخله العجب ويدخله الاغترار بالنفس ورؤيتها والزهو والتعالي على عباد الله هذا طبع في الإنسان لا ينجو منه إلا من نجاه الله سبحانه وتعالى بالإيمان .

نقل رحمه الله تعالى نقولات عن بعض السلف في معنى قوله ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ قال :

((قال مجاهد : «هذا بعلمي وأنا محقق به»)) أي أن معنى قوله «هذا لي»: أي بعلمي ؛ حصَّلت بعلمي بخبرتي ، بمهارتي ، بمعرفتي بدروب التجارة وسبل الربح ، بعرق جيبني ، بحذقي ؛ عبارات مختلفة والمؤدى واحد والمضمون واحد .

قال: «وأنا محقق به» : أي جدير بهذا وأهل له لأني على حذق وعلى معرفة وعلى خبرة وعلى درية بالتجارة وأصولها ، لا يقول هذا فضل الله سبحانه وتعالى عليّ ومنه جل وعلا .

((وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « يريد من عندي »)) ؛ أي ﴿ هَذَا لِي ﴾ : من عندي ؛ حصَّلتها واكتسبته من عندي ، أي ليس من عند الله وإنما هو من عندي بمجادة ومهارة ومعرفة وخبرة وما إلى ذلك .

وهذا الكلام الذي يقوله هؤلاء كله كذب ، هؤلاء كل كلامهم كذب يكذبون على أنفسهم وعلى الناس ، وإلا هذا كله من الله لكنهم يكذبون ويقول القائل منهم : هذا بمجدارتي وبحذقي .. هذا كله كذب ، هذا فضل الله عليه ، الله الذي خوّله هذه النعمة وأعطاه هذه المنة ، ولهذا تجد في الناس من يكون عنده مهارة مثلاً في التجارة ويدخل في أنواع من التجارات وينحسر!! ويكون آخر دونه في المعرفة ويربح!! الأمر بيد الله ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢] ، هذا أمر بيد الله يبسط لمن يشاء ويقدر على من يشاء سبحانه وتعالى الأمر بيده جل وعلا ، ولهذا الذي يقول عندما يربح ويحصل من التجارات وغيرها "هذا لي وهذا بمهارتي وهذا بخبرتي.." الخ هذا كله كذب مخالف للحقيقة ، يكذب على نفسه وعلى عباد الله سبحانه وتعالى ، هذا فضل الله عليه ، ليست المهارة ولا الخبرة ولا التجارة بالتي ينال الإنسان من ورائها الأرباح لولا فضل الله وبسط الله عليه بالرزق . فالرزق بيد الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء سبحانه وتعالى والله ذو الفضل العظيم .

وإعطاء الرزق الديني للعبد هذا لا يدل على فضل ولا على مكرمة ولا على منزلة عند الله ؛ لأن الدنيا هينة عند الله يعطيها من يحب ومن لا يحب كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلًّا نُّنْذِرُهُ هَؤُلَاءِ وَمِثْلَهُ مِمَّنْ لَبِثَ

عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٠-٢١] ، فالدنيا يعطيها الله سبحانه وتعالى من شاء من البرية؛ من مسلم أو كافر ، أو بر أو فاجر ، أو مطيع أو عاصي ، أما

الدين لا يعطيه إلا خير البرية ، والدنيا يعطيها سبحانه وتعالى من شاء ﴿كَلَّا نُمَدِّهُ هُوَآءَ وَهَؤَآءَ﴾ فالعطاء الديني سواء في الصحة أو المال أو التجارة أو غير ذلك كل ذلك لا يدل على فضيلة ولا على مكانة .

قال رحمه الله : ((وقوله ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨])) هذا كلام قاله قارون الذي آتاه الله من الكنوز والأموال الطائلة ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، قال هذا الكلام لما ذكره عقلاء قومه بفضل الله عليه قالوا له ﴿وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] ، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] أي هذه الأموال الطائلة الكثيرة إنما -و«إنما» أسلوب من أساليب الحصر- أوتيته أي نلتها وحصلته على علم مني ؛ أي مهارة وخبرة ومعرفة بالتجارة وأصول الربح ، ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ وهذا جحد لنعمة الله عليه ، والله عز وجل قال للمشركين كما في الآية التي مرت معنا ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٠] أي من الكفار والمشركين من أسلاف هؤلاء ومنهم هذا قارون ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠) ؛ الأموال التي حصلوها والأموال التي اكتسبوها لما جاءتهم عقوبة الله سبحانه وتعالى ما أغنت عنهم ولا خلصتهم من عقوبة الله ، خسف الله به وبماله وبداره الأرض ، ما أغنت عنه أمواله ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ ، ومعنى قوله ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ : أي أصابهم عقوبات ما كسبوا ، والمراد بالسيئة هنا: العقوبة ، وسميت العقوبة سيئة لأنها تسوء صاحبها . ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤَآءِ﴾ أي كفار قريش ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ .

وهذا يستفيد منه العاقل أن التاريخ مليء بالعبر ، إن كان الإنسان عنده أموال طائلة كم مرَّ في التاريخ من أشخاص كان عندهم من الأموال أكثر من ماله، وعندهم من الصحة أكثر من صحته، وعندهم من الحشم والحواشي وغير ذلك أكثر منه؛ ما أغنت عنه أمواله ، عندما جاءته عقوبة الله سبحانه وتعالى ما أغنت عنه .

((﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ؛ قال قتادة : «على علم مني بوجوه المكاسب»)) أي أن هذه الأموال إنما وجدت ونلتها لأن عندي معرفة بوجوه المكاسب ، عندي خبرة ، عندي مهارة .

((وقال آخرون : «على علم من الله أني له أهل»)) ؛ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي أن الله عليم أني أهل لهذه

الأموال فأعطاني إياها لأنني أهل لها ، وقد عرفنا أن العطاء الديني إنما هو امتحان فقط ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾

امتحان وابتلاء ، مثل ما يتلى الفقير بفقره يتلى الغني بغناه ، ﴿وَبَلُّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، فالغني مبتلى بغناه والفقير مبتلى بفقره ، وعبودية الغنى الشكر ، وعبودية الفقر الصبر ، والمؤمن شاكراً عند السراء صابراً عند البلاء والضراء ، وأهل العلم رحمهم الله لهم خلاف معروف أيهما أفضل: الغني الشاكر أو الفقير الصابر ؟ وبعضهم أَلَّفَ فيها مؤلفات مفردة ، يقول ابن القيم رحمه الله سألت شيخ الإسلام عن هذه المسألة فقال : الأفضل منهما الأتقى لله ، قلت له فإن كانوا في التقوى سواء ؟ قال هم في الأجر سواء ؛ لماذا ؟ لأن الغني عبوديته الشكر فأداها ، والفقير عبوديته الصبر فأداها ، هذا ابتلي بالغنى فأدى عبودية الغنى ، وهذا ابتلي بالفقر فأدى عبودية الفقر . فإذا كانوا في التقوى سواء فهم في الأجر سواء ، لأن كلا منهما أدى عبودية الامتحان الذي امتحنه الله سبحانه وتعالى وابتلاه به .

قال : ((وهذا معنى قول مجاهد «أوتيته على شرف»)) ؛ قول مجاهد «أوتيته على شرف» مثل ما نُقِلَ عن بعض السلف أنهم قالوا : «على علمٍ أُنِي له أهل» أي لشرفي ومكانتي . وهذه التفسيرات التي نقلها ليست متعارضة وإنما هي تفسيرٌ وبيان لمعنى الآية بذكر أفراد داخلية في معناها ، وإلا كلها مما تدل عليها الآية الكريمة ، والألفاظ كثيرة جداً لا تتوقف عند هذه الألفاظ التي ذكر المصنف ، الألفاظ كثيرة ولهذا يجب على الإنسان أن يكون دائماً في كل مرة تتجدد النعمة رأساً يذكر نعمة الله عليه ، لا يقول هذا بحذقي ولا يقول هذا بجدارتي ولا هذا بعرق جبيني ولا يقول أنا أهلٌ لذلك ولا غير ذلك ، وإنما يقول هذا فضل الله ؛ يحمد الله سبحانه وتعالى ويشكره جل في علاه .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ؛ فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال لونٌ حسن وجلدٌ حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس به ، قال فمسحه فذهب عنه قدره ، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً ، قال فأئى المال أحب إليك ؟ قال الإبل أو البقر -شك إسحاق- فأعطي ناقهً عُشراء وقال بارك الله لك فيها . قال فأئى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال شعرٌ حسن ويذهب عني الذي قدرني الناس به ، فمسحه فذهب عنه وأُعطي شعراً حسناً ، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل ، فأعطي بقرةً حاملاً ، قال بارك الله لك فيها ، فأئى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك؟ قال أن يرد الله إليّ بصري فأبصر به الناس ، فمسحه فردَّ الله إليه بصره ، قال فأئى المال أحب إليك؟

قال الغنم فأعطي شاة والدًا ، فأنتج هذان وولّد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم ، قال ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيته فقال : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيراً أتبلغ به في سفري ، فقال الحقوق كثيرة ، فقال كأني أعرفك؛ ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيراً فأعطاك الله عز وجل المال ؟ فقال إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع في صورته فقال له مثلما قال لهذا وردّ عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، قال وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهّدك اليوم بشيءٍ أخذته الله ، فقال أمسك مالك فإنما ابتليتيم ؛ فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك)) أخرجاه.

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث؛ حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة هؤلاء نفر الثلاثة من بني إسرائيل ؛ أحدهم أقرع والثاني أبرص والثالث أعمى ، وامتحان الله سبحانه وتعالى وابتلاؤه لهم بأن أعطاهم الصحة وأعطاهم المال ، أعطاهم صحة في الأبدان وأعطاهم أيضاً غنى وكثرة في الأموال ، وتبدلت حالهم من المرض إلى الصحة ومن الفقر إلى الغنى ابتلاءً وامتحاناً ، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى وامتحانهم بذلك ، وهي قصة مثل ما قال المصنف رحمه الله تعالى في المسائل قصة عجيبة وفيها عبر عظيمة . ومثل هذه القصص ينبغي على المسلم أن يأخذها على وجه الاعتبار والاتعاظ ؛ فيعتبر بمثل هذه القصص ويتعظ ويصلح من حال نفسه مع الله سبحانه وتعالى ، ويتعدى عن الأخطاء والمخالفات التي تقدح في الإيمان إما تنافيه من أصله أو تنافي كماله أو تخل بشيء منه ، يتعدى عن ذلك ويستفيد من هذه القصص إصلاحاً لإيمانه وعنايةً به ومحافظةً عليه وتبعاً عن مثل هذه الأخطاء التي وقع فيها من وقع ولم ينجح فيما ابتلاه الله سبحانه وتعالى وامتحنه به .

قال : وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى)) ؛ الأبرص: من بجلده برص وهو البياض الذي يكون على الجلد . وكما سيأتي البرص يعدّ عيباً في الإنسان ولهذا قال هذا الرجل الذي به برص ((قدرني الناس)) يعني منطري مستقذر عنده ينفرون منه ، فالبرص: مرض يصيب الإنسان وهو بياض يكون على ظهر جلده وتغيّر في لون الجلد ، وهو منظر يستقذره الناس ولهذا قال : ((قدرني الناس)) .

والآخر أقرع أي به قرع ، والقرع: هو الصلع الذي يكون في الرأس ؛ يتساقط الشعر فلا يبقى فيه شعر أو يبقى فيه شعيرات مثلاً قليلة ، وأيضاً مثل ما قال هذا الرجل قال ((قدرني الناس)) أي لهذا القرع الذي بي وتساقط الشعر .

والآخر أعمى ، والعمى لا يكون إلا بفقد العينين كلاهما بحيث لا يرى أصلاً .

فثلاثة نفر هذه حالهم من حيث الصحة ، أما من حيث المال فكلهم فقراء الثلاثة لا مال عندهم ، من حيث الصحة أحدهم أبرص والآخر أقرع والثالث أعمى ، وأما من حيث المال فهم فقراء كلهم لا مال عنده .

((فأراد الله أن يبتليهم)) والابتلاء: هو الامتحان والاختبار .

أراد أن يبتليهم ((فبعث إليهم ملكاً)) أي على صورة بشر .

فجاءهم هذا الملك ((فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟)) ما الذي تحب؟ وهو كما عرفنا متأذي من هذا البرص الذي أصيب به والناس قدروا هذا البرص الذي فيه ، فلما قال أي شيء تحب؟ ((قال لَوْنٌ حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس به)) هذا الذي أحب .

قال: ((فمسحه فذهب عنه قدره)) شفاه الله سبحانه وتعالى من ذلك وعافاه ((فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً)) هذا الآن تحول في الصحة .

((قال فأني المال أحب إليك ؟ قال الإبل أو البقر ، شك إسحاق)) أي ابن عبد الله أحد رواة الحديث ((فأعطي ناقه عَشْرَاء)) عَشْرَاء: أي حامل ، وقيل العَشْرَاء: هي التي بلغت في أشهر الحمل الشهر العاشر ، ويبقى هذا للاسم اسماً لها إلى أن تلد ، يقال لها ناقه عَشْرَاء أي ناقه حامل .

((فأعطي ناقه عَشْرَاء وقال بارك الله لك فيها)) دعا له بالبركة في هذا المال ، والبركة في المال: تعني نماءه وزيادته، البركة تعني النماء والزيادة والتكاثر كثرة المال ، فدعا له بالبركة فيها :أي في هذه الناقة العَشْرَاء .

((قال فأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال شعراً حسن ويذهب عني الذي قدرني الناس)) أي هذا القرع ((فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً ، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل ، فأعطي بقرة حاملاً ، قال بارك الله لك فيها)) . إذاً الأبرص أعطي ناقه عَشْرَاء ، والأقرع أعطي بقرة حاملاً .

((قال فأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك؟ قال أن يرد الله إليّ بصري فأبصر به الناس؛ فمسحه فرد الله إليه بصره)) ؛ رأيت مرةً أحد الشباب من حفظة كتاب الله عز وجل وهو كيف البصر فجاء ذكر لذلك فقال : والله إني أحمد الله على هذه النعمة لأنني في عافية من أمور كثيرة وسلامة من أمور كثيرة ابتلي بها كثير من المبصرين فعافاني الله سبحانه وتعالى من ذلك ، وأعطاه الله عز وجل من النباهة والحفظ لكتاب الله وأمر كثيرة ليست عند كثير من المبصرين ؛ فكان يحمد الله عز وجل ويرى أنه في نعمة لأن الله عافاه وسلّمه .

قال: ((فمسحه فردّ الله إليه بصره، قال فأني المال أحب إليك؟ قال الغنم، فأعطي شاة والدًا)) الشاة الوالد: قيل التي معها ولدها ، وقيل الشاة المعروفة بكثرة الولادة وحسن الحمل ، لأن من الشياة من يكون بطنها أكثر من واحد ، الشاة عادة تحمل في بطنها حملاً واحداً فأحياناً يكون الحمل أكثر من واحد ، فمعنى والدًا : إما معها ولدها ، أو أنها عرفت بكثرة الولادة .

((فَأَنْتَجْ هَذَا)) وضبطت أيضا «أَنْتَجْ هَذَا» ، وتروى «نَتَجْ هَذَا» . هَذَا : أي صاحب البقر وصاحب الإبل ، ومعنى أَنْتَجْ : أي قام عليها وتولى نتاجها ، ومعنى هَذَا أن كل واحد منهم قام على رعاية هذه الأنعام التي عنده وتولى رعايتها وتولى نتاجها واعتنى بها ((فَأَنْتَجْ هَذَا وَوَلَدَ هَذَا)) أي صاحب الغنم قام على توليد الغنم التي عنده ورعايتها والعناية بها .

((فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ)) وهذه من البركة التي في دعاء الملك وهي دعوة مستجابة ، فبارك الله لكل واحد منهم فيما أعطي فكان للأول واد من الإبل ، والثاني له واد من البقر ، والثالث واد خمن الغنم . انظر الآن إلى حال هؤلاء الصحة من أحسن ما يكون والمال بهذه الكثرة ! هذا الآن الابتلاء والامتحان في أَوْجِهٍ وشدته .

قال : ((ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ)) في صورته أي كما كان سابقاً أبرص فقير ؛ أتاه في صورته وهَيْئَتِهِ . ((فَقَالَ : رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي)) انقطعت بي الحبال : أي السُّبُل ، ليس عندي ما يكفيني ويسد حاجتي وأتَبَلَّغَ به في سفري .

((قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاحَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ)) وهذا فيه الأدب في الطلب ، و«ثُمَّ» كما هو معلوم ومر معنا تفيد التراخي والمهلة .

((أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنُ الْحَسَنَ وَالْجِلْدُ الْحَسَنَ وَالْمَالُ بَعِيرًا أَتَبَلَّغَ بِهِ فِي سَفَرِي)) يعني سأل شيئاً قليلاً من شيء كثير أعطاه الله سبحانه وتعالى إياه .

((فَقَالَ الْحَقُّوقُ كَثِيرَةً)) يعني الالتزامات كثيرة ورأيتي التزامات ورأيتي مسؤوليات ما أستطيع أن أعطيك بغيراً ، الحقوق كثيرة .

فقال : ((كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ؛ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدِرُكَ النَّاسُ ، فَقَبِيْرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلًا)) فجحد نعمة الله عليه .

((قَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ)) أي أباً عن جد ، هذا المال ورثته من آبائي وآبائي ورثوه عن آبائهم كلنا كنا أهل أموال وأهل تجارات ورثته كابرًا عن كابر ؛ جحد نعمة الله عليه ؛ نعمة الصحة ونعمة المال .

((قَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ)) أيضا انظر هذه المراعاة في الدعاء وهو يعرف أنه كاذب لأنه هو المرسل له في امتحانه وابتلائه ، ومع ذلك ترى بعض الناس بقليل من التهمة أو الظن يدعوا على الآخرين ، ولا يدعوا عليهم بمثل هذا القيد وإنما يدعوا عليهم جزماً وهو عنده ظن ليس عنده يقين !! وانظر دعوة هذا الملك قال : «إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ» .

((قَالَ : وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَمَا قَالَ لِهَذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا ، فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ)).

((قال: وأتى الأعمى في صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلِّغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري)) ما جحد مثل الأولين ((فخذ ما شئت ودع ما شئت)) خذ ما شئت من هذه الماشية ودع ما شئت منها ((فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله)) لا أشق عليك ولا أمنعك بل خذ ما شئت من هذه الماشية . فهذا اعترف بالنعمة وأدى الشكر وحقق أركان الشكر الثلاثة التي هي: اعتراف القلب بالمنعم وفضله سبحانه وتعالى والإقرار بذلك ، وأيضاً اعتراف اللسان بالمنعم وفضله سبحانه وتعالى ، وأيضاً استعمال النعمة في طاعة الله عز وجل وأداء حق الله فيها من الصدقات ومعاونة ابن السبيل والمحتاج .

قال: ((فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله ، فقال أمسك مالك فإنما ابتليتكم)) أي أنتم الثلاثة ((ابتليتكم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك)).

أنظر قوله ((رضي الله عنك)) فيه أن من يؤدي شكر النعمة يرضى الله عنه ، مثل ما في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)) ، فالله عز وجل يرضى عن عبده إذا كان معترفاً بالنعمة شاكراً للمنعم فإنه بذلك يفوز برضا الله سبحانه وتعالى عنه .

قال: ((وسخط على صاحبيك)) لأن جحد النعم موجب لسخط الله ، والسخط موجب لحلول العقوبة ، مثل مر معنا في الآية ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر: ٥١] أي عقوبات ما كسبوا .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الآية .

الأولى : تفسير الآية ؛ أي التي صدر بها الترجمة وهي قول الله عز وجل ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ ، وقد مر بيانٌ لشيء من معناها .

الثانية : ما معنى ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ .

ما معنى ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ وهو المقصود بهذه الترجمة ، وقد نقل رحمه الله تعالى نقولات عن بعض السلف في بيان معناها .

الثالثة : ما معنى قوله ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] .

ما معنى قوله أي ما ذكره الله عن قارون عندما ذُكِرَ بنعمة الله عليه وحثه العقلاء من قومه على الإحسان كما أحسن الله إليه ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧] فجحد النعمة جحد إحسان الله وفضله وقال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ؛ ومعنى ﴿ أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ مر عند المصنف رحمه الله بعض النقولات عن السلف في بيان معناها .

الرابعة : ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة .

ما في هذه القصة العجيبة أي قصة هؤلاء نفر الثلاثة من العبر العظيمة ، والعبر: هي العظات ، وهذه القصة لاشك أن فيها عبر وعظات ويستفاد من ذلك أن مثل هذه القصص لا تُقرأ لمجرد الاطلاع عليها والعلم بها ، وإنما يطلع الإنسان ليأخذ منها العبرة والعظة وكما يقال: السعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ به غيره .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده رسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .